قصة قصيرة

طيور السنونو

لؤي عبد الإله

(١)

ها هي براغ تواجهه مرة أخرى، أمامه يستقر المسرح الوطني، كأنه تاج كبير يقف على حافة سقفه تمثلون منحوتون من الصخر. والى يمينه هادئاً نهر الفولتافا بلونه الرمادي الغامق.

اغلق باب المقهى خلفه، وعيناه تتسللان عبر زجاج نوافذها الى الداخل، يتابع بها خطوات نادلة المقهى الشقراء، بثوبها الأسود ومريلتها البيضاء.

«ترى كيف سأجد مركز البريد؟». لقد مرَّ به قبل اسبوع، وهو يقابل ساحة صغيرة في وسطها تمثال أسد برونزي، يتدفق من فمه الماء..

عبر الشارع الى الجانب الأخر، ثم مشى على الرصيف يساراً، يتطلع الى جدار المسرح الرمادي المزركش بنقوش مذهّبة ترتفع بجانبه كنيسة من العصر الباروكي، بزخارفها وانحناءاتها. الأنيقة...

عليه ان يعود الى وطنه. اذ مضى عليه ثلاثة أسابيع في هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها غير لغتهم. لم يكن أمامه خيار سوى أن يلتقي بأبناء وطنه الذين يشاركهم لغتهم وماضيهم وهواجسهم، لكنهم كانوا ينفرون منه، كأنه آت من بلد آخر مصاب بالطاعون. إنهم هنا طلقاء، طيور اخرجت من أقفاصها الى حين، بعد أن قضت نصف عمرها فيها. جاءوا إلى هذه المدينة الرمادية كي يعيشوا المراهقة التي خلّفوها وراءهم دون أن يحيوها.

انعطف يمينا، ثم مضى في درب ضيق، استدار إلى اليسار عند أول مفترق طرق، استقبله زقاق امتدت على جانبيه البنايات القديمة المحمول بعضها على أكتاف المردة الصخريين، مطليّة بألوان متجانسة بين البنفسجي والرمادي، أشاعت في صدره وحشة وانقباضاً، انتهى من الزقاق الى شارع مكتظ بالسيارات والمارة. سار يساراً، فيميناً. اقتادته قدماه الى مسالك شتى، ليجد نفسه في نهاية التطواف بجانب المقهى الذي خرج منه، الى يمينه الآن النهر الرمادي، والى يساره واجهة المقهى الزجاجية. تمتم آنذاك: «المدينة المسحورة لاتمنح نفسها بسهولة للغرباء».

سأل أول عابر عن مكان البريد، لكن الآخر ابتسم وهو يرفع قبعته عن رأسه قليلاً، مغمغماً بكلمات غامضة ثم راح يجر خطاه مسرعاً.

المقهى مغناطيس يجذبه أينما توجه، ليُعيده الى مقاعدها... ما الذي يغريه فيه؟ أهو الشعور بالأمن لوجود نفر من ابناء وطنه يتوزعون حول طاولاته؟... لم يرَ إلا امرأة واحدة من بلاده، عجوز جاءت مع ابنها للعلاج. جلسا بجانبه مرة واحدة. تبادل الحديث معها عن الأمراض، وإمكانات علاجها في هذه المدينة، فهو الآخر قد جاء لعلاج قرحة المعدة التي ألّمت به منذ أكثر من عام... ليترك قدميه تقودانه، ويدع. ذاكرته طليقة...

مرقت من جانبه بخطى متناسقة رشيقة، حاملة مظروفاً أزرق، فأيقظته من شروده. ها هو يرى قدميه تتقافزان أمامه، فتصبح المسافة بينهما ضئيلة. ناداها عند ذلك، فالتفتت إليه. لاقاه وجه طفولي، بشعر أسود قصير يصل إلى وجنتيها. سألها متلعثماً عن مكان البريد. أجابته باللغة نفسها «تعال معي».

دخلا المكتب، فاحتوتها ردهة صغيرة منقسمة إلى جزئين، يفصلها حاجز نصفه الأعلى من زجاج، والنصف الآخر مغطى بخشب سميك. توزعت في وسطه كوات عديدة. سأل الرجل الجالس خلف الكوة الأولى عن المكان المخصص لإرسال البرقيات إلى الخارج، فأجابه بلغة مبهمة. تلفت حوله باحثاً عنها، الا أنها اختفت آنذاك. ظل واقفاً وسط الردهة، يتطلع الى الكلمات الغامضة الموزعة فوق الحاجز، جاءه صوت رقيق موضح: «مازلت واقفاً في مكانك؟». التفت إلى الخلف، فوجدها مرة أخرى، ترتسم في عينيها ضحكة صامتة. كان العرق ينضح من وجهه بغزارة.« التفاهم معكم مستحيل... ولكن من أين خرجت لي؟ ». أشارت الى الوراء حيث توجد «كابينة» الهاتف.. سألته:

- ما الذي تريد؟
- إرسال برقية
- انتظر لحظة.

اندفعت إلى الكوة الرابعة. وقفت بجانبها لحظات، ثم عادت بورقة صفراء. أشارت إلى المساحة التي يجب ملؤها بالكلمات، وإلى المكان المخصص لكتابة العنوان. شكرها ثم ذهب إلى طاولة موضوعة بجانب

الجدار المقابل للباب. كتب في الورقة: «عزيزتي هناء... سأقبل إليكِ الأربعاء. أنا بخير». سلمها الى الموظف الجالس خلف الكوة نفسها. دفع له الأجر ثم توجه الى الباب الخارجي.

* * *

«الىٰ أين أذهب الآن». وقف ساهماً أمام الباب، يتطلع إلىٰ الساحة الدائرية الصغيرة، بطيورها المنتشرة قريباً من الأسد المعدني، تلتقط الطعام الذي ينثره لها الصغار. تذكر أن الطيور في بلاده لا تقف الاّ فوق منائر المساجد العالية. وصله صوت مرح عذب. «هل انتهت من برقيتك؟». التفت قليلاً إلىٰ اليمين، فقابلته ثانية، وجهاً لوجه. عيناها في عينيه. جمع شتات أفكاره أجابها بعد لحظات:

- نعم... ظننت أنك قد ذهبت.
- كنت في كابينة التلفون.
- إنني محظوظ هذا اليوم.
- لماذا؟.
- إنها المرة الأولىٰ التي لا أتكلم فيها بإشارات اليد مع الآخرين.

سارا معاً بخطى متأنية. تركها تقوده، وهو يشعر أنه يستيقظ من سبات عميق زمنه بلا حدود. التقطت عيناه الوهلة الأولىٰ أصص الأزهار الموضوعة فوق شرفات المنازل العالية الممتدة إلىٰ يساره علىٰ الرصيف الآخر من الشارع. كان الجيرانيوم يتقطر بحمرة زاهية أمامه. جاءه صوتها بعد دقائق هامساً:

- كم مضىٰ عليك في براغ؟
- ثلاثة أسابيع.
- هل شاهدت معالمها الشهيرة؟
- اللغة كانت عائقاً أمامي.
- أستطيع أن أساعدك في ذلك.
- أنت جد رحيمة.

ضحكت قليلاً، ثم راحا يمشيان في انسياب حتىٰ بلغا شارعاً عريضاً غاصاً بالناقلات، مزدحماً بالمارة علىٰ رصيفيه. كانت واجهات المحلات تتألق بين الأضواء الملونة، إذ حلّ الغروب. اكتشف أن السماء في هذه المدينة صافية لا يشوبها الغبار أو دخان المصانع.استقلا سلماً للهبوط، فأدىٰ بهما إلىٰ شكل فناء واسع، مضاء بمصابيح نيونية. التفتت إليه قائلة:

- عليّ أن اذهب الآن.
- سنلتقي ثانية؟
- بالتأكيد... ولكن متىٰ؟.
- غداً...؟.
- سأكون مشغولة غداً... بعد غد.
- إذن سأنتظرك هنا الساعة الرابعة عصراً.

(٢)

«ما الذي يدفعها الىٰ المجيء؟». ألقىٰ نظرة علىٰ ساعته. كان عقرباها يشيران إلىٰ الرابعة والربع. سينتظر عشر دقائق أخرىٰ... أعاد عينيه إلىٰ السلمين المتقابلين علىٰ جهتي الفناء، حيث حركة الناس في صعود ونزول دائبين... لقد انقضت ساعات اليومين السابقين سريعة، كأنها حبات رمل تتسرب من بين أصابع يد مشدودة.التفت صوب الجدار. نظر بعينين شاردتين إلىٰ الصور المضاءة المعلقة عليه. جذبه إعلان كبير عن عرض مسرحي يبدأ يوم الخميس. فهم ذلك من صورة الممثلين الملونة التي تتوسط الإعلان. «ساكون في بيتي آنذاك...». انتقلت عيناه إلىٰ صورة سيارة حمراء. أثناء تلك الدقائق، كان ذهنه مشغولاً بالمصعدين. راوده إحساس من يتوقع مفاجأة تغير رتابة مسار اللحظات، حالما يلتفت ثانية نحو الفناء.

أمعن النظر في السلم الواقع إلىٰ يساره. انتقل إلىٰ الآخر، فلمح فتاة في أسفله، ترتدي قميصاً أبيض وتنورة زرقاء، خافضة رأسها قليلاً، تحرك ذراعيها بخفة كي تزيد من سرعتها. كانت قادمة نحوه. وجب قلبه وهو يتابع خطواتها. ذكّرته بطائر القطا الذي رآه وسط الحقول يركض هرباً من مطارديه. ما إن قطعت نصف المسافة الفاصلة بينه وبين السلم، حتىٰ رفعت رأسها ورشقته بابتسامة، ثم عادت تمشي بخطى أكثر بطئاً. وقفت أمامه، تتواثب أنفاسها فوق صدرها الذي راح يصعد ويهبط في انتظام. مدت له يدها قائلة:

- أعتذر عن تأخري.
- ما كان عليك أن تتعبي نفسك.
- الىٰ أين تحب أن نذهب؟.
- أنت التي تقررين.

قادته إلىٰ شوارع كثيرة، ضيّق بعضها، ومتسع بعضها الآخر، خالية من السيارات. اكتشف تناسق الألوان التي اكتست بها المباني، فانبثق منها بريق الأزمنة القديمة. شعر أن ما يراه الآن ليس الاّ حلماً يطالعه من عصر ذهبي زائل. همس:

- براغ متحف عجيب.
- أنا أعبدها.

عبرا جسر كارلوف بخطى وئيدة، وعيناه تتابعان التماثيل الرخامية علىٰ جانبية. شعر أنه يراها لأول مرة، رغم عبوره هذا الجسر عدة مرات. وقفا قليلاً بجانب الحاجز الحديدي. تطلعا إلىٰ النهر الرمادي دقائق. كانت الشمس تلقي بأشعتها عليه، فتتحول الىٰ شظايا متوهجة طافية فوقه. تدفقت في عروقه الدماء بعنف. التفت إليها، فرآها سارحة في الفراغ. سألها:« إلىٰ أين تقودينني...؟». أجابت ضاحكة «سترىٰ». انتهيا من الجسر، فمرا تحت برج من الصخر، لونه مائل للسواد، ثم راحت الطرق المرصوفة بالبلاط الأصفر ترتفع وتضيق. واجههما درج ذو سلالم عريضة، منحوت علىٰ سفح هضبة عالية، تنتشر علىٰ جانبيه أشجار الكستناء. التفتت إليه:

- هل تستطيع الصعود؟.
- لا تخافي عليّ.

ما إن وصلا إلىٰ نهاية السلم، حتىٰ قابلا غابة، يتوسطها ممر ضيق. سارا بين الأشجار يصغيان معاً إلىٰ همهمات الطيور المتقطعة. كانت عيناه تتمنعان في الشجر الذي تداخلت غصونه كأنها أكف متشابكة، تتسلل من بينها أشعة الشمس، بقع ملتمعة برتقالية اللون، تستقر فوق التراب البنيّ وجذوع الشجر. أفضت بهما الغابة إلىٰ حديقة واسعة، تنتهي إلىٰ اليمين عند حافة الهضبة، وأمامها ظهر مقهى. ما إن دخلاه حتىٰ أطلا علىٰ المدينة، يفصلها عنها نهر الفولتافا، الذي لاح له كأنه قد تحول إلىٰ بللور أرجواني غامق.

كان المقهىٰ يتكون من فناء محاط بحاجز ذي قضبان حديدية مشبّكة، ارتفاعها لا يزيد عن متر، ومن خلفه يهبط حاداً سفح الهضبة بضعة أمتار، ثم يتدرج في الهبوط مغطىٰ بالشجر، حتىٰ يلتقي عند نهايته بالنهر.

جلسا بجانب الحاجز، ، تتوسطهما طاولة صغيرة مغطاة بشرشف أبيض. ظلا ساكتين يتابعان رواد المقهىٰ الجالسين حيناً، ويتطلعان إلىٰ المدينة التي علاها ضباب شفاف حيناً آخر. انتقل ذهوله إليها، فشعرت كأنها ترىٰ مدينتها لأول وهلة. غمره في تلك اللحظات إحساس سجين يطلق سراحه بعد سنوات من السجن لا عدّ لها. سألته:

- لماذا جئت الىٰ هذه المدينة؟
- من أجل الالتقاء بك.
- أنت رومانسي.
- لقد بحثت عنك طويلاً.
- وعاطفي أيضاً.

رمت بعبارتها الأخيرة، وهي تحدق في عينيه. اختفت البسمة من وجهها، ثم راحت تتطلع إلىٰ النهر واجمة. سألها:

- أنت طالبة؟
- كيف عرفت؟
- ذلك واضح، فأنت ما زلت صغيرة.
- وكم تقدر عمري؟
- عشرين عاماً
- أكبر قليلاً... واحداً وعشرين... وأنت، كم عمرك؟ .
- تسعة وعشرون... (أجابها بذلك بدلاً من ثلاثة وثلاثين.)
- ليس هناك فرق كبير بيننا... أنت صغير أيضا.ضحكت، فاستعادت الألفة مكانها بينهما. سألته:
- ستبقىٰ فترة طويلة هنا؟
- بعد غد أسافر.
- وأنا أيضا سأذهب غدا إلىٰ أهلي لمدة أسبوع.
- أين يسكنون؟
- في براتسلافا...
- ألا تستطعين تأجيل سفرك يوماً واحداً؟.
- أخبرتهم بسفري إليهم غداً... سيقلقون عليّ كثيراً.

سألته بعد لحظات، بنبرة تحمل رجاء خفياً؟

- وأنت... ألا يمكنك أن تؤجل سفرك؟
- إجازتي ستنتهي غداً...

نطق عبارته هذه، بدلا من الجملة التي كادت تنزلق علىٰ لسانه: «زوجتي وأطفالي ينتظرونني بعد غد في بيتي»، سألته مرة أخرى:

- أعزب أنت؟.
- نعم.

أجابها وهو يحصي في ذاكرته عدد سنوات الزواج، فيكتشف أن عشرة أعوام قد مضت علىٰ اقترانه بأخت صديق له، أعجب بها قليلاً، وما أن صارحها بمشاعره، حتىٰ وجد نفسه محاطاً بشبكة من الألسن والأيدي والأقدام تدفعه بكل حية كي يعيش معها في بيت مختوم بابه بوثيقة رسمية، وها قد أصبح أباً لثلاثة أطفال وآخر في الطريق...

جاءه صوتها ثانية من بعيد ضعيفاً: «ولكن عندك صديقة؟». أجابها وهو يختنق ضحكة تفجرت في أعماقه: « الآن... أعيش وحدي»...

* * *

ثرثرا كثيراً، كصديقين قديمين لم يلتقيا منذ أعوام، واحتسى كل منهما خلال ذلك الوقت كأساً من النبيذ الأصفر. ما إن أكملاها حتىٰ حلّ الليل، فالتمعت مصابيح المقهىٰ النيونية البيضاء، ومن اليمين أرسلت المدينة أضواءها الملونة إلىٰ النهر، لتتكسر فوق سطحه، مكونة أعمدة متوهجة ممتدة الىٰ جوفه.

كان ضوء المقهىٰ يصلهما واهناً، فيمنعه من رؤية النمش الخفيف المبثوث فوق وجهها. سمع صوتها بعد دقائق مرتجفاً. «ألا نذهب الآن؟. فأنا أشعر بالبرد». خرجا من المقهىٰ، تتبعهما مصابيحه القليلة المعلقة علىٰ واجهته الخارجية. وأمامهما أطبقت العتمة علىٰ الغابة، فما عادا يلمحان منها سوىٰ كتل مختلفة في كثافة دجنتها. تمتمت: «سنأخذ طريقاً أخرى أقصر من الأولىٰ».

انعطفا يميناً. توغلا في غابة يخترقها ممر عريض مكسو بالعشب، ومن خلفهما بدأت الأصوات والأضواء المنبعثة من المقهىٰ تتلاشىٰ، حتى اختفت.

استيقظ في نفسيهما خوف غامض، وهما يلجان قلب الغابة المظلم، وسط صرير الجنادب المتواصل. تحسست أصابعه يدها فجأة، فأمسك بها، ثم طوق كتفها بيده اليمنىٰ، وتأبطت هي ظهره. سارا ببطء، وهما يتابعان أصوات أنفاسهما تتوحد في إيقاعها. يصلهما هسيس العشب الذي يضربانه بأقدامهما في كل خطوة، كأنه صوت قطرات المطر المتساقط بانتظام وئيداً فوق زجاج نافذة.

(٣)

هبط بالسلم الكهربائي الى فناء النفق، يغمره إحساس بأن زمنا طويلاً قد مر عليه منذ أن كان هنا آخر مرة. رنا من بعيد الىٰ جدار النفق، حيث علقت صورة السيارة الحمراء. اتفق معها أن ينتظرها بجانب تلك الصورة، إلاّ أن إحساساً خفياً كان يدفعه للاختفاء بين الناس، ومراقبة تلك الدائرة السحرية. «من أي منفذ ستدخل؟... ما الذي ستفعله حينما لا تراني؟». اتفقا البارحة قبل أن يفترقا علىٰ الالتقاء هنا عند الثانية. أمامهما ساعات قليلة يقضيانها معاً لتأخذ من بعد قطارها...

هل يترك النفق ويخرج منه وحده؟... أيه لعبة هذه التي يدخل فيها؟... وقف بجانب كشك يبيع السجائر والصحف. اشترىٰ منه علبة، وعيناه تنزلقان بين السلمين المتقابلين. «لماذا تأتي الآن؟». من كان يظن أن حجراً سيلقى وسط بركة ماء ساكنة منذ عشرة أعوام، ليضطرب سطحها، فتنبعث فوقها دوائر تخلّف وراءها دوائر أخرىٰ؟.

هاهي أمامه الآن، فاتنة كل الفتنة، طفلة أضاعت أبويها، فراحت تبحث عنهما بين جموع العابرين.« ما الذي يشدك إليها؟...أنت لا تعرف شيئاً عنها، وهي لا تعرف شيئاً عنك. تلتقيان صدفة وسط دوامة حركة لا نهائية، فتنسجان عالماً من الوهم، كأطفال يبنون قصوراً علىٰ الرمل لا تلبث أن تسقطها الريح بين أرجلهم».

تسارعت أنفاسه، وهو يراها تتلفت حولها. إندفع نحوها، فالتقت أعينهما وسط طريقه إليها. فرح طفولي، يملأ عينيها. تخطو نحوه خطوات عجلىٰ متقطعة، فيلتقيان قريباً من وسط الفناء. حدقت في عينيه كأنها تكشف حيلته. مدت له يدها ببرود متعمّد:
- كيف حالك؟... نمت جيداً؟.
- ليس تماما.
- اليوم أنا التي تدعوك... إلىٰ مقهىٰ «للعشاق فقط».

قالت ذلك في فرح، ثم شدت يده بين أصابع يدها. خرجا من النفق فصدمتهما الشمس المتوهجة. سألها:
- تشعرين بالعطش؟
- قليلاً... ما رأيك في قدح من البيرة؟.

دخلا الىٰ مقهىٰ يعج بالجالسين والواقفين. وزعت علىٰ ارضيتها طاولات حديدية بيضاء، يحيط بكل منها بضعة كراسي خشبية دون انتظام. كانت هناك مجموعة من السياح الألمان يملأون الصالة ضجيجاً. أمام «الكاونتر» جلس أحدهم ثملاً، يخاطب النادلة الواقفة خلفه. تبدّى عليها الغضب من حديثه رغم سعيها لإظهار ابتسامة تقتضيها مهنتها. أصاخت السمع ملتفتة إليها، وظل يراقب جانباً من وجهها. أمعن النظر في النمش المبثوث فوقه. أنفها الصغير لا يظهر إلا انحناءة خفيفة، لتليه شفتاها الرقيقتان المضمومتان. سألها:
- تفهمين ما يقوله هذا الشيخ؟.

- إنه يهذر... يدعوها للذهاب معه، ويستعمل كلمات مبتذلة.

طفح علىٰ عينيها الاستياء. أضافت وهي تنهض من كرسيها: «سأجلب البيرة بنفسي». ما إن أكملا كأسيهما حتىٰ خرجا من المقهىٰ. قطعا الشارع الىٰ الرصيف الآخر، ثم راحا يمشيان بتأن. قالت:
- أنت صامت اليوم.
- وأنت أيضا.
- لقد غنيت كثيراً البارحة.
- كانت ليلة عجيبة.

وصلا الىٰ ساحة واسعة، مربعة الشكل، محاطة بأبنية قديمة، ينتصب الى يسارها برج عال، تتوسط جداره المجاور لها وقريباً من قمته ساعة جدارية. يتحلق أمامها السواح، رافعين رؤوسهم اليها، منتظرين دقاتها الخمس القوية، لتفتح نافذة فوقها، فتطل دمىٰ تتحرك أمامهم، وتحييهم تمثل تلامذة المسيح الاثني عشر. «إنها لعبة غبية». قالت ذلك وهي تتطلع الىٰ السياح. سألها:
- كم مضىٰ علىٰ هذه الساعة وهي تضرب بناقوسها؟.
- لا أدري... أكثر من ثلاثمائة سنة.

رمت خطواتها الىٰ الأمام. وصلتها ضربات الساعة العتيقة، وهما يعبران البرج. تمتم:
- متىٰ ستسافرين؟.
- لا تفكر في السفر الآن... أمامنا وقت طويل.

* * *

دخلا المقهىٰ الذي وعدته أن تصحبه اليه، فواجهتهما صالة حديثة، تغطي نوافذها ستائر سميكة من قماش أزرق، وقد صفت طاولاتها بالتوالي علىٰ جانبي الصالة. كل طاولة تحاذيها أريكتان وثيرتان، وفوقها تتدلىٰ أباجورة معدنية حمراء ينبعث من تحتها ضوء خافت. جلسا متقابلين خلف طاولة تقع في منتصف الصالة، يجاورهما الجدار المغطىٰ بالخشب البني. سألهما النادل عما يشربان. طلب قدحاً من النبيذ الأصفر، وطلبت هي مثله..

مسا كأسيهما الواحدة بالأخرى، ثم احتسيا منها قليلاً. همس:
- مدهش ما يجري الآن.
- كيف؟
- هكذا نلتقي صدفة... إنه لا يعدو أن يكون حلماً.
- ولكننا سنلتقي ثانية.
- الخطوط المستقيمة لا تتقاطع الا في نقطة واحدة.
- لا تكن متشائماً... العالم جدّ صغير الآن.
- نحن لا نعيش سوىٰ حلم ليلة صيف يا صغيرتي.
- أعدك أنني سأكون دليلك المرافق لك منذ أول لحظة تهبط فيها الىٰ براغ ... متىٰ ستكون اجازتك القادمة؟
- في ديسمبر.
- سنلتقي هنا، ونحتفل بالسنة الجديدة.. ستكون المدينة غارقة في الثلج والضباب.

ارتشفت من كأسها مرة أخرىٰ. ما إن أنزلته حتىٰ لمح التماعة غريبة في عينيها. وضع كفها بين يديه، والىٰ جانبها يسكن كأساهما نصف فارغتين. سألها، وهو يحدق في وجهها:
- كم مضىٰ علىٰ لقائنا الأول؟
- عشرة اعوام تقريبا.

ضحكا معاً. أمسك خصلة من شعرها للحظات، وذاكرته تستعيد مشهد وقوفهما فوق الجسر بعد عودتهما الىٰ المدينة البارحة، حيث تلألأت مصابيحها فوق النهر، فتسللت شذرات الضوء الىٰ وجهها، ممزوجة بظلال تتاوج عليه. لاحت أمامه آنذاك غامضة... لكأن الزمن الذي مر عليها خلال وقوفهما أمام النهر شلال عذب من مياه معدنية دافئة، يغوص فيه، يتنفس في اعماقه. جاءه صوتها متهدجاً:
- كم الساعة الآن؟
- السابعة وخمس دقائق.
- عليّ أن أذهب الىٰ المحطة... أمامي اقل من ساعة للسفر.

انتابه ندم لإخبارها بالحقيقه. كان بإمكانه أن يضيف كذبة أخرىٰ، فيقضيا الليلة الأخيرة معاً.

* * *

اشترت تذكرة السفر بعد انتظار دقائق، كانت خلالها ساهمة وسط صف من الناس الواقفين أمام كوة، تجلس خلفها امرأة تبيع التذاكر. ثم الىٰ يسار الصالة حيث توجد خزانة لإيداع الامتعة، فاستلمت حقيبتها. قالت له في مرح:

- «الآن، أنا مستعدة للسفر، ومتفرغة لك وحدك».

انعطفا يمينا، فاجتازا البوابة الكبيرة، ثم سارا علىٰ الرصيف

الثاني وسط صفير القطارات وضجيج عتلات ماكيناتها، حتى بلغا عربة من الدرجة الثانية. وقفت بجانبها وهي تسأله:

- كم بقى من الوقت؟
- عشر دقائق.
- لقد نسيت أن اعطيك عنواني... كم أنا غبية، يا آلهي

أخرجت ورقة من دفتر صغير موضوع في حقيبتها المعلقة على كتفها. كتبت عليها عنوانها، ثم اعطتها اياه.

- لا تنسَ أن تكتب لي حالما تصل إلى بلدك...

ما الذي جرى لك؟ أنت حزين؟

- لا... ولكنني لست فرحاً أيضاً.
- كفّ عن شكواك هذه... سنلتقي دائما، وسأظل صغيرتك الى الأبد.

مررت اصابعها بين شعره، وهي تخنق عبرة تفجرت في اعماقها، فضمها الى صدره، وشدت هي على رقبته بكلتا يديها. لكأنها يريدان في التصاقهما هذا أن ينفصلا عن مسار الزمن المتتابع بايقاعه الى يمينها، هناك حيث علقت ساعة كبيرة دائرية، تشير الى الثامنة الا خمس دقائق. تداخلت شفتاها وهما يسمعان صفير القطار معلناً عن وقت الرحيل. مرت من جانبيها ورقة جوالة صغار تقودها امرأة، فوقف بعضهم قريباً منها، وللحظات قليلة، يتطلع مستغرباً اليها. جاء صوت المستخدم من اليمين طالباً من المسافرين الاسراع في الصعود.

وثبت الى داخل العربة، ثم ناولها الحقيبة. وقفت خلف الباب المفتوح مثبتة عينيها في عينيه، وقد التصقت دمعتان بجفنيها السفليين. أغلق عامل القطار الباب، فظلت نظراتها من وراء الزجاج الذي يغطي جزءه الأعلى تغزو عينيه...

تململ القطار بعد أن صفر ثلاث مرات. انسلت عربة، ثم تلتها اخرى ها هو يفتح باب العربة الثالثة، فيقفز الى الداخل، يسير بخطى مجنونة الى اليمين. يتسمر بجانب كابينة، يجلس فيها جمع من الناس، وتقف فتاة بجوار نافذتها مولية ظهرها الى الباب. يصيح بها، فتلتفت اليه بعينين حزينتين... يختفي كل شيء من أمامه، ويجد نفسه واقفاً على الرصيف في مكانه... اسرع القطار في خطاه، حتى مرقت آخر عرباته من جانبه، ثم بدأ يغوص في الأفق الذي علاه الشفق الارجواني..

كان الغروب قد حل آنذاك عميقاً بزرقة سمائه، فلعلعت أصوات طيور السنونو مودعة النهار.

عاد ثانية نحو البوابة الكبيرة، وعيناه تنظران في شرود الى بقايا الطعام والعلب الفارغة الملقاة على الرصيف. ومن اعماق الغروب اطلت عيناها عليه مبللتين بالدمع.

وقف بجانب البوابة قليلاً. استدار الى الوراء. كان كل شيء آنذاك ساكنا في مكانه. اخرج من جيبه الورقة، ومزقها قطعاً صغيرة، ثم ألقى بها في الفراغ هامساً في نفسه:« ترى ما لون عينيها؟ ».

وهران (الجزائر)

دار الآداب تقدم

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- أدب الحرب
(بالاشتراك مع د. نجاح العطار)
- الدقل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- ناظم حكمت : السجن، المرأة، الحياة
- ناظم حكمت : ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية